الشارقة فيما لنا من أسانيد المغاربة والمشارقة" و"التحفة في أو ائل الكتب الشريفة" الزركلي، المرجع السابق، المجلد السادس، ص 299.

6- أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، أبو العباس، زروق (846-899هـ/1442-1493هـ): فقيه محدث صوفي. من أهل فاس "بالمغرب" تفقه في بلده وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف فتجرد وساح، وتوفي في تكرين (من قرى مسراته، من أعمال طرابلس الغرب). له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، وانفرد بجودة التصنيف في التصوف. من كتبه "شرح مختصر خليل" في فقه المالكية، و"النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية –ط" و"القواعد –ط" في التصوف و"إعانة المتوجه المسكين، على طريقة الفتح والتمكن –خ"... وله عدة شروح للحكم العطائية...و"الجنة، للمعتصم من البدع بالسنة" و"البدع التي يفعلها فقراء الصوفية" منه فصل، و"الكناشة" و"رحلة" و"شرح رسالة أبي زيد القيرواني–ط"..."المرجع نفسه، المجلد الأو ل، ص91.

7- محمد السنوسي، راجع رسالتنا السالفة الذكر، ص ص210-216.

8- أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي أبو العباس (834-914هـ/1430-1508م): فقيه مالكي، أخذ عن علماء تلمسان، ونقمت عليه حكومتها أمرا فانتهبت داره وفر إلى فاس سنة 874 هـ فوطنها إلى أن مات فيها، عن نحو80 عاما. من كتبه "إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك –خ" و"المعيار المعرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس وبلاد المغرب–ط" اثنا عشر جزءا، و"القواعد" في فقه المالكية، و"المنهج الفائق، والمنهل الرائق في أحكام الوثائق–ط" بفاس، و"غنية المعاصر والتالي على وثائق الفشتالي–ط"و"إضاءة الحلك في الرد على من أفتى بتضمين الراعي المشترك–ط" رسالة صغيرة، وكتاب "الولايات في مناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية–ط" مع ترجمة فرنسية. وله اختصارات، منها "المختصر من أحكام البرزلي –خ" صغير، في الرباط (المجموع 263ق) و"الفروق في مسائل الفقه،..." المرجع نفسه، المجلد الأو ل، ص269.

9- سعيد بن محمد العقباني : "سعيد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني إمامها وعلامتها، ذكره ابن فرحون في الأصل، وقال : إنه فقيه في المذهب، متفنن في علوم... ولي قضاء الجماعة ببجاية في زمن أبي عنان، والعلماء يومئذ متوافرون، وولي أيضا قضاء تلمسان، وله في ولاية القضاء ما ينيف على أربعين سنة. وألف شرح الحوفي لا نظير له، وشرح جمل الخونجي، وتلخيص ابن البنا، وقصيدة ابن ياسمين في الجبر والمقابلة، والعقيدة البرهانية، وتفسير سورة الفتح أتى فيه بفوائد جليلة... وقال الونشريسي في وفياته : مولده بتلمسان عام عشرين وسبعمائة (720)، وتوفي عام أحد عشر وثمانمائة (811)...". الحفناوي أبوالقاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، الطبعة الثانية، تونس 1405هـ/1985م، القسم الثاني، ص 161-162.

10- أحمد بن زكري (ت 899هـ/1493م) : راجع ترجمته عند عادل نويهض، معجم أعلام من صدر الإسلام حتى القران العشرين، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأو لى، 1971، ص 40-41. وللمزيد يمكن مراجعة مقالة الدكتور جيلالي صاري : "أضواء على حياة وتراث أبي العباس أحمد بن محمد زكري التلمساني" مجلة الثقافة، العدد 90 المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1406هـ/1985م، ص ص 87-96.

11- عبد الرحمن الثعالبي (ت 875هـ) راجع رسالتنا للماجستير السالفة الذكر، ص ص 202-209.

12- موسى بن يغمراسن : المشهور بأبي حمو موسى الثاني، ولقد ألف فيه الدكتور عبد الحميد حاجيات كتابا بعنوان أبي حمو موسى الثاني.

13- لم نتبين أي المرازقة ألف هذه الرسالة، وللإطلاع على عائلة المرازقة يمكن العودة إلى مقدمة تحقيق كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تأليف ابن مرزوق التلمساني، تحقيق ماريا خيسوس بغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 32-33.

الحسن بن باديس القسنطيني
(701-787هـ/1301-1385م)

د. محمد بن معمر*

تمهيد: كانت مدينة قسنطينة خلال القرن 8هـ/14م التي نحن بصدد دراسة علم من أعلامها، بمثابة عاصمة جهوية في القسم الغربي من إفريقية التابع للمملكة الحفصية. وكان سكانها من الحضر وهم الكثرة الغالبة، ويشمل هؤلاء العائلات القديمة التي استوطنت المدينة منذ أحقاب، والعائلات الحضرية الطارئة من الأندلس وبجاية وتونس وغيرها، إضافة إلى العناصر اليهودية أيضا.

ونظرا لأهمية المدينة إستراتيجيا في غرب إفريقية، فقد ظهرت فيها عائلات غنية وثرية وذات مكانة إجتماعية مرموقة، ومن أشهرها عائلة ابن فكون، وابن بجاوي، وابن جلول، وباشا تارزي، وابن باديس، وابن حسن وغيرها(1). وكانت هذه العائلات الكبرى وذات النفوذ الأقوى متنافسة فيما بينها، حول نفوذها وامتيازاتها المتصلة بمرتبتها، باعتبارها الطبقة النبيلة في المدينة.

وللتدليل على هذه المنافسة لا بأس من الإشارة إلى تلك النادرة التي أوردها ابن قنفذ في كتابة الفارسية ومفادها أن الملك الحفصي أبا زكريا في آخر ق 7هـ/13م مرض مرة بقسنطينة، وبعد شفائه قدم إليه وفد من أهل بجاية للهناء، يرأسهم الفقيه أبو العباس الغبريني. ولتطييب خاطر أهل قسنطينة برآسة الفقيه ابن الديم طلب منهم الحاجب السماح لوفد بجاية بالدخول قبلهم على الملك باعتبارهم ضيوفه فقبلوا ذلك. ودخل الجميع على هذا الترتيب: آخر البجائيين أول القسنطينيين. ولكن الوفد البجائي دخل بوقار وأدب مع قاضيه ورئيسه، في حين دخل القسنطينيون وهم يتزاحمون مع قاضيهم كأحدهم، وكل واحد يريد أن يكون الموالي للملك في

---

*-أستاذ محاضر في تاريخ المغرب الإسلامي-قسم الحضارة الإسلامية-جامعة وهران.

جلوسه، وهو الأمر الذي علق عليه الفقيه البجائي حين قال للقاضي ابن الديم: "رأيت أدب أهل بلدنا معي، وأنت لا وقار لك مع أهل بلدك"؛ فقال له قاضي قسنطينة: "السبب في ذلك أن فقهائكم محدثون ببلدكم، وهؤلاء كل بيت ترى أنها أرفع من الأخرى بأصالتهم في بلدهم وقدم نعمتهم"؛ فسكت القاضي الغبريني كالنادم في قوله[2].

وإذا كانت هذه المنافسة بين العائلات القسنطينية وترفع الواحدة عن الأخرى لا تخلو من سلبيات، فإن من أكبر إيجابياتها أنها وفرت للمدينة والبلاد مجموعة كبيرة من الأدباء ورجال الدين وأعلام الثقافة والفكر. ولعل عائلة ابن باديس واحدة من تلك العائلات التي أنجبت ثلة مباركة من هؤلاء العلماء العاملين.

العائلة الباديسية في قسنطينة:

عائلة مدنية ثرية وذات تاريخ حافل بالعلم والجاه الاجتماعي والروحي في قسنطينة. وأول حضور سجلته لنا المصادر لأفراد هذه العائلة في قسنطينة هو ما ذكره العبدري صاحب الرحلة حين دخلها سنة 688هـ؛ فقال: "ولم أر بها من ينتمي إلى طلب، ولا من له في فن من فنون المعارف أرب، سوى الشيخ أبي علي حسن بن القاسم بن باديس، وهو شيخ من أهل العلم يذكر فقها ومسائل ذو سمت وهيبة ووقار، وليس في البلد من يذكر بعلم سواه البتة". إلى أن يقول: "وسألته عن الأديب ابن الفكون فذكر لي أنه أدركه وهو طفل صغير، ولم يحفظ له مولدا ولا وفاة[3].

يتضح من نص العبدري أنه حين دخل قسنطينة في حدود سنة 688هـ أو 689هـ، (1290/1289م) وجد ابن باديس في سن الشيخوخة، ويبدو أنه قد عمر طوال القرن السابع الهجري/13م، وهو ما يفهم من سؤال العبدري له عن الأديب ابن الفكون الذي مات بعد سنة 602 هـ بقليل، وقد أدركه ابن باديس وهو طفل صغير، كما يستنتج أن شهرة ابن باديس العلمية قد غطت معاصريه في قسنطينة خلال هذا القرن بل إنه كان وحيد عصره حسب العبدري.

كما ذكرت النصوص التاريخية وكتب التراجم شخصية أخرى من العائلة الباديسية عاشت خلال القرن 8هـ/14م، وهي موضوع هذه المقالة، ولكن الملفت للانتباه هو أن شخصية القرن 8هـ/14م تحمل نفس الاسم والكنية التي حملها شيخ القرن 7هـ/13م الذي ذكره العبدري في رحلته، وهو الأمر الذي قد يثير اللبس حول الشخصيتين مع فارق الزمن بينهما.

ولكن بالاعتماد على ابن قنفذ[4] في وفياته يمكننا إزالة هذا اللبس، فهو حين أشار إلى علم آخر من أعلام العائلة، وهو حسن بن خلف الله ابن حسن ابن أبي القاسم ابن باديس؛ والذي أرخ وفاته بسنة 784 هـ، قال عنه: إنه ابن عم وابن خالة الشخصية التي نحن بصدد ترجمتها؛ والتي حملت نفس اسم وكنية شخصية ق 7هـ/13م، مع العلم أن الاثنين كانا متعاصرين، فقد مات الأول سنة 784هـ/1382م ومات الثاني سنة 787هـ/1385م، وعليه فإن ذلك يقتضي أن يكون نسب صاحبنا بهذا الشكل: حسن ابن أبي القاسم بن الحسن ابن أبي القاسم بن باديس. أي أن الأول هو الجد والثاني هو الحفيد، وما أكثر الأمثلة في هذا المجال عند العائلات والبيوتات العريقة.

أبو علي حسن بن باديس صاحب هذه الترجمة:

جاء في وفيات ابن قنفذ عن ابن باديس هذا ما يلي: توفي سنة 787هـ شيخنا الفقيه القاضي الشهير المحدث أبو علي حسن ابن أبي القاسم بن باديس، روى عن ناصر الدين المشذالي، وابن غريون البجائي، وابن عبد الرفيع القاضي وغيرهم، وفي الأخير عن صلاح الدين العلائي المقدسي، وخليل المكي، وابن هشام النحوي صاحب المغني، وأخبرني عن ابن هشام هذا أنه قال: "ختمت عليه ألفية ابن مالك ألف مرة على ما أخبره، وكانت ولادته سنة 701هـ، له تقاييد منها شرحه لمختصر السير لابن فارس وأدرك في حداثة سنة من المعارف العلمية ما لم يدركه غيره في كبر سنة، ولغلبة الانقباض عليه قل النفع به لمن أدرك حياته"[5].

هذا كل ما نملكه من معطيات عن ابن باديس خصوصا في مرحلة الشباب والدراسة، وهي المادة التي اعتمدها دون زيادة أو نقصان من جاء بعد ابن قنفذ كصاحب نيل الابتهاج، وصاحب تعريف الخلف.[6] وقد ساعدنا النص في تحديد ولادة ابن باديس وسنة وفاته وهو حرص من ابن قنفذ باعتباره شيخه بخلاف كثير من الشخصيات التي ساد الغموض تواريخ الميلاد والوفاة لديها في عصور لم يكن أهلها يحرصون على مثل هذه الأمور. كما أشار النص إلى الشيوخ الذين تتلمذ عليهم صاحبنا، والنباهة والحذق والنبوغ وهي الصفات التي تحلى بها في حداثة سنة وهو يطلب العلم، وما ختمه لألفية ابن مالك على شيخه ابن هشام ألف مرة إلا دليل على ذلك، مع التنبيه إلى حالة نفسية كان يعاني منها ابن باديس وحرم بسببها طلبته من منافعه العلمية وهي الانقباض.

ولم يشذ ابن باديس عن أهل عصره، فقد خضع في تعلمه للمناهج السائدة آنذاك و المتمثلة في حفظ القرآن، وألفية ابن مالك في ميدان اللغة، ثم التبحر في علوم الفقه لما له من علاقة بحياة الناس اليومية من جهة، ولأن تعلمه كان يؤهل لتقلد الكثير من المناصب الدينية كالقضاء مثلا. وهو ما يفهم من نص ابن قنفذ الذي أشار إلى ابن باديس بقوله القاضي الشهير المحدث. ولم يكن ابن باديس قاضيا فحسب، بل ثمة مجالات أخرى نبغ فيها، وفيما يلي المجالات المعرفية والمناصب التي تقلدها ابن باديس.

هل كان ابن باديس مؤرخا ؟

قد نكون مغالين إذ قلنا أن ابن باديس كان مؤرخا بأتم ما للكلمة من معنى، رغم مساهمته في هذا المجال. فهو تخصص تترجمه أعمال من يحمل هذه الصفة مع تطبيق المنهج الخاص بهذه الوظيفة. وكلما كان صاحب هذا التخصص ناجحا في عمله كلما كان معدودا من المؤرخين الكبار. ولعل القرن الذي نحن بصدد الحديث عنه قد عرف واحدا من عمالقة التاريخ في فترة الانتقال من العصر الوسيط إلى الحديث، ألا وهو ابن خلدون (732-808هـ)

وقد غطى ابن خلدون بشهرته ونظرياته في العلوم الاجتماعية سابقيه ومعاصريه ولاحقيه، ولم يلد المغرب الأوسط مع الأسف خلال هذه الحقبة مؤرخا كبيرا كابن خلدون. ولكن ذلك لم يعدم وجود مؤرخين عرفهم هذا القرن (8هـ) وإن لم يرقوا إلى مستوى ابن خلدون . ومنهم ابن قنفذ القسنطيني (740-810هـ) تلميذ صاحب هذه الترجمة، ومن إنتاجه التاريخي، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، وأنس الفقير وعز الحقير، والوفيات. وكذلك ابن مرزوق الجد (711-781هـ) صاحب "المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن" أي أن بطل تاريخ ابن مرزوق هو الأمير أبو الحسن المريني.

وإلى جانب هؤلاء ساهم ابن باديس القسنطيني في مجال التاريخ بتأليف واحد سماه "فرائد الدرر وفوائد الفكر في شرح المختصر" ولكنه مات دون أن يكمله. وهو شرح لكتاب السير المختصر لصاحبه احمد بن فارس الرازي. وقد تناول ابن باديس في شرحه سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتاريخ الصحابة.

وقد علق الدكتور سعد الله على إنتاج ابن باديس وتلميذه ابن قنفذ التاريخي قائلا: "وإذا كان ابن باديس مقلا في آثاره التاريخية، فإن ابن القنفذ كان مكثرا وتناول في كتاباته موضوعات محلية (أو وطنية بلغة اليوم) وليست عامة (أو إسلامية) كما فعل شيخه ابن باديس (7)".

إن قلة آثار ابن باديس التاريخية هي التي جعلتنا نتحفظ في نعته بالمؤرخ رغم هذه المساهمة، لأن الرجل كان فقيها أكثر منه مؤرخا، وحتى مساهمته التاريخية قد خصصها لسيرة النبي وأصحابه خدمة لتوجهه ولم يؤرخ لملك أو سلطان أو أمير على غرار معاصريه كابن قنفذ في الفارسية وابن مرزوق في المسند.

ابن باديس قاضيا :

اكتفى ابن قنفذ في روايته المقتضبة التي ذكرناها آنفا، بوصف ابن باديس بالقاضي الشهير دون أن يعطينا التاريخ الذي تولى فيه ابن باديس القضاء ولا المكان الذي استقضي فيه. ولكنه حين أشار إلى شيخه الباديسي الآخر ابن عم صاحب الترجمة في أنس الفقير قال عنه أن وفاته كانت سنة 784هـ وهو قائم على خطة القضاء بقسنطينة(8)، مما يوحي بأن الأسرة الباديسية كانت تستأثر بخطة القضاء في قسنطينة في القرن 8هـ .

أما صاحب هذه الترجمة فقد أورد بشأنه في ميدان القضاء، الزركشي في تاريخ الدولتين ما يلي: وفي آخر ربيع الأول من سنة 778هـ/1377م توفي قاضي الجماعة بتونس الفقيه الحافظ أبو العباس احمد بن محمد بن قاسم بن محمد بن حيدرة فتولى بعده قضاء الجماعة الفقيه أبو علي الحسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطيني. ثم قال عنه في أحداث سنة 781هـ/1380م أنه في أواخر صفر من هذه السنة استعفى الفقيه أبو علي حسن بن باديس وقدمه بلده قسنطينة، وقدم الفقيه أبا عبد الله محمد بن علي البلوي القطان لقضاء الجماعة بتونس.(9)

حسب الزركشي فإن الذي تولى قضاء الجماعة بتونس حاضرة الحفصيين بعد موت ابن حيدرة هو القاضي ابن باديس واستمرت ولايته على قضاء الجماعة أزيد من ثلاث سنوات، إلى أن طلب هو الإعفاء من هذا المنصب ولم يعزل عنه. وكان ذلك على عهد السلطان الحفصي أبي العباس أحمد (773-796هـ) (1370-1394م) وهو من مواليد قسنطينة سنة 729هـ/1329م، وهو المقصود في نص الزركشي بأمر التعيين والتقديم فيما يخص القضاة. وقد لاحظ برنشفيك أن جميع قضاة الجماعة تقريبا في العهد الحفصي كانوا من أبناء البلاد، فخلال ق13م كانوا من تونس والمهدية وصفاقس وتوزر وقابس وطرابلس، وخلال القرنين 14 و 15 م وبالخصوص منذ عهد ابي العباس امتدت منطقة انتدابهم الى الناحية الغربية فشملت أولا وقبل كل شيى مدينة قسنطينة التي انطلق منها ذلك السلطان نفسه للإستلاء على تونس(10).

إن ارتقاء ابن باديس إلى منصب قاضي الجماعة بعاصمة المملكة الحفصية يحمل أكثر من ة. ومن خلال تعريفنا لهذا المنصب وإبراز أهميته يمكننا إدراك المكانة والشهرة التي كان يحظى ابن باديس في أوساط المملكة في عصره. لقد كان قاضي الجماعة الممثل لأعلى سلطة دينية في ل البلاد، ويوجد على رأس أصحاب الوظائف الدينية في العاصمة، وكان بمثابة قاضي القضاة المشرق. ونظرا لأهمية هذه الخطة فإن صاحبها كان يعتبر كما هو الحال في سائر البلدان سلامية من أبرز كبار رجال الدولة، وأن تولي هذا المنصب كان في حد ذاته شرفا كبيرا. ويعتبر يجا لحياة إدارية ناجحة. وكانت للقضاء هيبته وللقاضي مكانته ليس لدى الخاصة فحسب بل ى العامة على حد سواء.

وكان يوجد إلى جانب قاضي الجماعة بالعاصمة قضاة محليون يتولون القضاء في مدن ملكة المختلفة، ومن دون شك فإن ابن باديس وقبل أن يتولى قضاء الجماعة سنة 778هـ قد ارس خطة القضاء في قسنطينة وهو ما بخلت علينا المصادر بذكره، إذ لا يمكن أن يتولى ابن باديس ضاء الجماعة بدون رصيد يرتكز عليه وتجربة في ميدان القضاء يعتد بها. ومما يؤسف له أيضا وفي غياب النصوص التاريخية فإننا لا نعرف الطريقة التي اتبعها ابن باديس في ميدان القضاء أو مواقفه من السلطة السياسية في هذا المجال وعن السبب الذي دفعه إلى طلب الإعفاء واعتزال منصب قاضي الجماعة بتونس العاصمة. فهل هو رفض للضغوط التي قد يتعرض لها أي قاض في هذا المنصب؟ أم هو تعفف وهروب من المسؤولية ؟ سيما وأنه كان ذا ميول صوفية.

الاتجاه الصوفي عند ابن باديس: لقد ظهر التصوف في المشرق الإسلامي ثم انتقل إلى بلدان المغرب الإسلامي والأندلس وانتقلت معه حياة الزهد والتقشف وازدهرت في الربط والمساجد والزوايا وبرز أقطاب التصوف أمثال أبي مدين شعيب الغوث دفين تلمسان (ت 594 هـ) وأبي الحسن الشاذلي (ت 656هـ) وعبد السلام بن مشيش (ت 624هـ) وقد ترك هؤلاء آثارا هامة في ميدان التصوف خلال القرنين 6 و 7هـ/ 12 و 13م.

ولقد أصبح المغرب الأقصى في النصف الأول من القرن 15م/9هـ هو الذي يسترعي على وجه الخصوص انتباه مؤرخ الحركة الصوفية في الشمال الإفريقي. فكما كان الشأن قبل ذلك بثلاثمائة سنة، انطلقت الحركة الصوفية من هناك من جديد مؤثرة في المصير الديني للمغرب الإسلامي بتمامه وكماله(11).

ولعل ذلك كان من أبرز ما ميز القرن 9هـ/15م في المغرب الأوسط (الجزائر) أي ظهور عقيدة المرابط وانتشار الزوايا وافتتاح عهد التصوف العملي، الذي عرف خلال القرون اللاحقة انتشارا واسعا وتطورت الحركة الصوفية إلى ظهور الشيخ والاعتقاد فيه وابتداع الحضرة والأوراد والالتفاف حول الزوايا أو ما يعرف بالطرقية. ولكن الذي يهمنا هو القرن 8هـ/14م الذي كان بمثابة فترة انتقال من صوفية القرنين 6-7هـ/12-13م إلى طريقة ق 9هـ/15م وما بعده، وهو القرن الذي عاش فيه ابن باديس ومن ثم نتساءل عن علاقته بالحركة الصوفية. هناك أدلة تاريخية تثبت أن ابن باديس وإن لم يكن صوفيا صرفا فإنه كان ذا ميول صوفية ومعتقدا في كرامات رجال التصوف، ومن هذه الأدلة أنه كتب قصيدة شعرية يمدح فيها الشيخ عبد القادر الجيلاني ويشيد به ومطلع هذه المنظومة :

ألا سر إلى بغداد فهي منى النفس وحدث بها عمن ثوى بطن الرمس

وتقع القصيدة في 27 بيتا(12).

وتعرف هذه القصيدة أو المنظومة بالسينية وبالنفحات القدسية، وقد وضع عليها ابن باديس نفسه شرحا سماه اللمحات الأنسية، كما تبارى بعض العلماء في شرحها وتقليدها والتبرك بها.

ومن الأدلة على إعتقادات ابن باديس الصوفية، ما ذكره تلميذه ابن قنفذ في أنس الفقير في معرض حديثه عن أحد إخوان (أصدقاء) جده لأمه وهو الشيخ الصالح الحاج المبارك الفقيه السالك أبو هادي مصباح بن سعيد الصنهاجي. حيث يقول : أن ابن باديس لم يعتقد في أبي هادي إلا بعد أن لقي أخيارا بالحرم الشريف تعرف منهم مجاهدته هناك وعبادته وذلك بعد موته– أي أبي هادي–. ويضيف ابن قنفذ قائلا أن شيخه ابن باديس أخبره أن السلطان المريني أبا الحسن أراد أن بني مدرسة بقسنطينة فتحدث في شراء دار، وقيل له أن أبا هادي قريب العهد بشراء دار وهي الأليق لذلك، فكلف السلطان ابن باديس بالتحدث مع صاحبها ليوليها لأبي الحسن بأي ثمن شاء. ولكن ابن باديس دخل المحلة على السلطان ونسي أمر الدار واشتغل عنه السلطان أيضا ولم يكرر عليه في أمرها فرأى ذلك ابن باديس من بركة أبي هادي كما أخبر ابن قنفذ(13).

وردت في النص إشارتان تفيدان ميول ابن باديس الصوفية. أما الأولى فهي إعتقاده في صوفية وكرامة أبي هادي التي تأكد منها ابن باديس عند رحلته إلى الحج ولقائه بمن تعرفوا على أبي

هادي واطلعوا على عبادته هناك في الحرم، والإشارة الثانية هي أن ابن باديس اعتبر نسيانه لأمر الدار التي كلف بشرائها من أبي هادي وعدم مراجعة السلطان له في أمرها وإلحاحه عليه، إعتبر ذلك من بركة أبي هادي وهو إعتقاد صوفي وإيمان بكرامات الأولياء.

ويستنتج من النص أيضا ان ابن باديس كان أحد وجهاء المدينة في فترة الغزو المريني لإفريقية حين كلفه السلطان بشراء الدار لإقامة المدرسة، ودخوله عليه في المحلة وجلوسه معه، فمن غير المستبعد أن يكون يومها قاضيا لمدينة قسنطينة أو فقيهها سيما وأن الأمر يتعلق بمدرسة للتعليم. أما الغزو المريني لافريقية فقد تم في أوائل سنة 748هـ/1347م حيث إستولى ابو الحسن وهو في طريقه إلى العاصمة الحفصية على مدينة قسنطينة وأقام فيها المدة التي حاول خلالها بناء المدرسة المشار إليها في النص، ثم توجه إلى تونس العاصمة التي إحتلها في نفس السنة، واستمر الإحتلال المريني في إفريقية حتى سنة 750هـ/1349م، وقد هلك السلطان المريني بعد عودته من إفريقية بسنة ونصف تقريبا، وقد ساد الإعتقاد في قسنطينة ان ذلك كان بسبب دعاء أبي هادي عليه والذي طلب منه الرحيل عن إفريقية ورفض.

إن مكانة ابن باديس وجاهه الروحي ونفوذه الاجتماعي وشهرته القضائية في قسنطينة وخارجها تجعلنا نتحفظ في الحكم على ابن باديس بأنه كان صوفيا يعتقد في بركته وكرامته وينظم إليه الأتباع والمريدون كما هو الحال بالنسبة لأقطاب التصوف الذين سبقوه أو جاءوا بعده، غير أن ذلك لا يمنعنا من تأكيد ميوله الصوفية واعتقاده في رجال التصوف اعتمادا على النصوص التي سقناها، وهي النصوص التي جعلت صاحب تاريخ الجزائر الثقافي يحكم عليه بأنه واضع أسس أول مدرسة صوفية في قسنطينة، إلى جانب مدرسة بجاية التي أسسها أحد معاصريه وهو أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي البجائي المتوفي عام 786هـ. ومن هاتين المدرستين امتد تيار التصوف إلى باقي مدارس المغرب الأوسط (الجزائر) بعد القرن 8هـ/14م كمدرسة وهران وتلمسان وغيرهما من مدارس القطر[14].

ابن باديس محدثا مالكيا: وردت الإشارة عند ابن قنفذ[15] إلى نعت ابن باديس بالمحدث مرتين، دون أن يعطينا توضيحا لذلك من خلال عرض مؤلفات ابن باديس مثلا وآثاره في هذا الميدان أو طريقته في الحديث وجلساته التعليمية والعلمية إن كانت هناك جلسات، ولم يذكر حتى المذهب الفقهي الذي كان يتبناه ابن باديس ويخضع في عمله القضائي له. ولكن من خلال إستقراء

أحداث وتطورات القرن 8هـ/14م في الميدان ومعرفة شيوخ ابن باديس وطبيعة تكوينهم ومدى تأثيرهم في الأوساط العلمية يمكن تكوين صورة عنه كمحدث مالكي.

فكما هو معلوم فإن بوادر انتعاش المذهب المالكي في إفريقية الحفصية لم تظهر إلا في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م أي بعد زوال مظاهر المذهب الموحدي. وكان ذلك بفضل وتحت تأثير شخصيات تميزت بنفوذها القوي، كأبي القاسم ابن أبي بكر اليمني المعروف بابن زيتون المولود سنة 621هـ. وشعيب الهسكوري أصيل المغرب الأقصى المتوفي سنة 664هـ والذي أقام بتونس والقيروان كمدرس وقاض.

ومن تلك الشخصيات أيضا أحد شيوخ ابن باديس وهو الفقيه العالم أبو علي ناصر الدين منصور ابن أحمد المشذالي البجائي المتوفي سنة 731هـ عن عمر بلغ 100سنة وهو الذي تعرف خلال رحلته إلى مصر على تلامذة العالم المالكي المصري ابن الحاجب وجلب كتابه المختصر إلى إفريقية وروجه بها. وعليه فإن ابن باديس كان من أوائل المستفيدين من بوادر الإنتعاش المالكي التي عرفها القرن 7هـ/13م من خلال تعلمه على يد المشذالي أحد رواد هذا الإنتعاش.

ومنذ أوائل القرن 8هـ/14م أصبح الفقهاء المالكيون يسيطرون بلا منازع على كافة المؤسسات الدينية الرسمية، ويدرسون المذهب المالكي في المدارس ويشغلون مناصب القضاء في العاصمة وغيرها من مدن المملكة. وقد تولى أحد هؤلاء الفقهاء المالكيين المشهورين وهو أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن عبد الرفيع المتوفي سنة 733هـ، خطة القضاء في العاصمة وفي الأقاليم خمس مرات متتالية ما بين سنة 699هـ/733هـ، وكان نفوذه قويا في الأوساط الإفريقية في العقود الثلاثة الأولى من القرن 8هـ. وهو أحد شيوخ ابن باديس أيضا، مما يبين المصادر التي استقى منها صاحب وطبيعتها، والمؤثرات التي تعرض لها في بداية تكوينه وتحصيله العلميين. وتحولت بفضل هؤلاء الفقهاء العاصمة الحفصية إلى مركز من أنشط مراكز المذهب المالكي في أقطار المغرب الإسلامي إلى جانب عاصمة الزيانيين تلمسان وحاضرة المرينيين فاس.

إن النجاح الذي حققه المذهب المالكي لدى الأوساط الرسمية في تونس العاصمة خلال ق 8هـ/14م، لم يكن مقتصرا على تونس وحدها بل ساهمت في تحقيقه أقاليم المملكة الحفصية الأخرى ومنها القيروان ومن اقطاب المالكية فيها محمد بن عبد الرحمن القيسي المعروف بالرماح

وعبد الله بن محمد البلوي وكذلك بجاية وقد برز بها فقيه ذائع الصيت وأحد أقطاب التصوف وهو عبد الرحمن الوغليسي.

ويضاف إلى بجاية والقيروان مدينة قسنطينة التي برز بها خلال القرن 8هـ من دون شك ابن باديس كمحدث مالكي ذائع الصيت خلال هذا القرن. وقد أكد شهرته تلميذه ابن القنفذ مرتين في هذا المجال. ومما يؤسف له أيضا أن ما وصلنا من أخبار عن ابن باديس في هذا الميدان ضئيلة وتكاد تكون منعدمة وهو الأمر الذي حرمنا من إبراز جوانب هامة في حياة ابن باديس وكشف الغموض الذي يحيط بها.

الهــــــوامش:

(1)–أبو القاسم سعد الله.تاريخ الجزائر الثقافي.الجزائر 1981، ج 1، ص:170

(2)– ابن قنفذ القسنطيني. الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. تحقيق وتقديم الشاذلي النيفر وعبد الحميد التركي. تونس 1968، ص ص: 148-149.

(3)– العبدري أبو عبد الله محمد. الرحلة المغربية. تحقيق محمد الفاسي. الرباط1968 ص ص 32-33.

(4)– ابن قنفذ القسنطيني. الوفيات. تحقيق عادل نويهض. بيروت 1982، ص: 376

(5)– نفسه. ص ص : 376-377 .

(6)– التنبكي أحمد بابا. نيل الإبتهاج. طرابلس.ط 1. 1989. ص: 160.

(7)– أبو القاسم سعد الله. المرجع السابق. ج 1. ص ص :52-53.

(8)– ابن قنفذ القسنطيني. أنس الفقير وعز الحقير– نشر وتصحيح محمد الفاسي وأدولف فور–. الرباط– 1965–.صص : 92-93

(9)– الزركشي أبو عبد الله محمد. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تحقيق وتعليق محمد ماضور. المكتبة العتيقة تونس.ط 2 1966 .ص: 108 و ص:110.

(10) روبار برنشفيك.تاريخ إفريقية في العهد الحفصي.ترجمة حمادي الساحلي.دار الغرب الإسلامي 1988ج 2.ص 119.

11)– نفسه. ص:357.

(12)– توجد مخطوطة في خزانة الرباط تحت رقم د 583 و د 1641. وقد اطلع عليها سعد الله وقال عنها أن فيها أخطاء فادحة. المرجع السابق. ج 2 . هامش 92. ص:80.

(13)– ابن قنفذ القسنطيني. أنس الفقير. ص:50.

(14)– أبو القاسم سعد الله. المرجع السابق. ج1. ص ص: 79-80.

(15)– ابن قنفذ القسنطيني. الوفيات. ص: 376. وأنس الفقير ص: 50.

الداي علي خوجة وإصلاحاته

(1817 – 1818)

أ/ بوشنافي محمد

عرفت إيالة الجزائر أثناء العهد العثماني (1520–1830)، فترات من الفوضى والاضطرابات ارتبطت بعدم الاستقرار السياسي، مما كان له تأثير مباشر على تدهور الأوضاع العامة(1). غير أن هذه الحالة لا تنفي وجود محاولات إصلاحية، كان الغرض منها إحداث تغير شامل على التدهور الذي شهدته الإيالة. ولعل أهم محاولة في القرن الثامن عشر، كانت تلك التي قادها الداي محمد بن عثمان باشا (1766–1791)(2)، وما يعطي لهذه المحاولة الإصلاحية أهميتها، سيادة الاستقرار والهدوء، الذي لم يقتصر على مدينة الجزائر فحسب، بل امتد إلى كامل أنحاء الإيالة، وهذا ما جعل البايات يساهمون في الإصلاح وإنجاحه، ونعني بذلك الباي صالح (1771–1792) في بايلك قسنطينة(3)، والباي محمد الكبير (1779 – 1796) في بايلك الغرب(4).

هل نجحت الإصلاحات؟ يظهر أن نجاح المشروع الإصلاحي السابق الذكر، لم يكن إلا ظرفيا، وبالتالي فإنه فشل في تحقيق "الانطلاقة الحضارية" للجزائر، إذ سرعان ما عادت الفوضى والاضطرابات إلى كامل أرجاء الإيالة، وكان من بين الأسباب التي أفشلت المشروع، تلك الوضعية التي أصبح يعيشها الجيش الانكشاري، الذي أهمل واجبه العسكري وأصبح يتدخل في شؤون السياسة بتعيين الدايات وعزلهم، كما أن مطالبه المادية (الأجور) أصبحت تشكل عبئا ثقيلا على خزينة الإيالة، وهذا ما جعل حمدان خوجة يصف هذا الجيش بقوله: "صارت تلك الميليشيا المسلحة التي لا مبدأ لها، صارت ترتكب المخالفات ضد البدو والقبائل، ثم قام هؤلاء البؤساء بإشعال الثورات وقلب قادة الدولة حسب هــواهم"(5).

---

*- أستاذ مساعد بقسم التاريخ- جامعة سيدي بلعباس.